الحبل والنار التي تسري

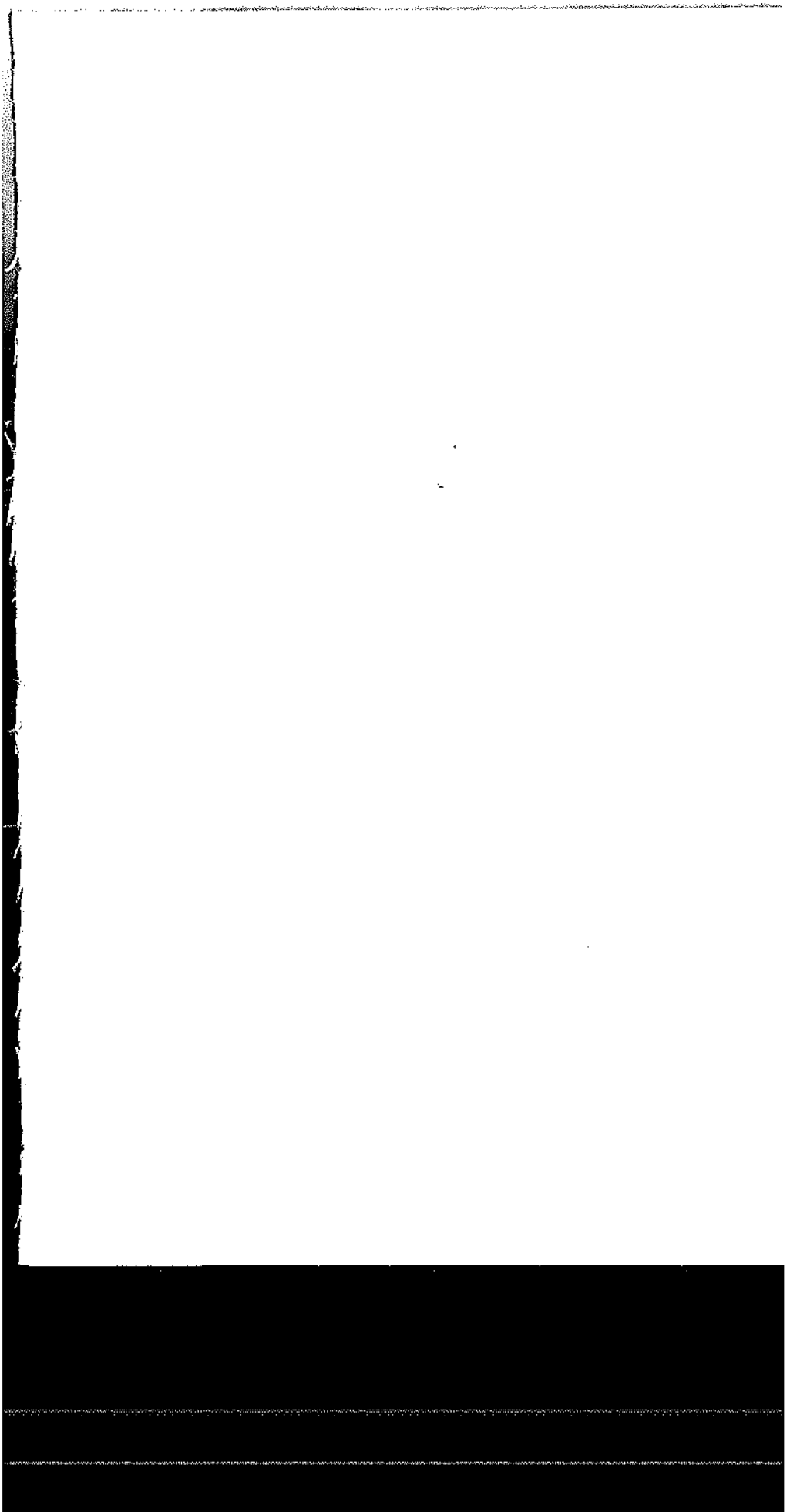

قصي الشيخ عسكر

الحبل والنار التي تسري

روايةٌ مهجرية

العراق للمطبوعات

الحبل والنار التي تسري
روايةٌ مهجرية

قصي الشيخ عسكر

الطبعة الأولى 2014
القياس: 14 x 21
عدد الصفحات: 64
ISBN 978-9953-574-68-4

نشر وتوزيع
شركة المعارف للأعمال ش.م.م.

المعارف للمطبوعات

بيروت – لبنان
00961 1452077
العراق – النجف الأشرف
00964 7801327828
Trl: www.alaref.net

التوزيع في الجزائر والمغرب العربي:
دار الأبحاث للطباعة للنشر والتوزيع
الجزائر – هاتف: 744281 ـ 21 (00213)
البريد الإلكتروني: www.alabhaath@.com

التوزيع في الأردن:
دار المناهج للنشر والتوزيع
الأردن – هاتف/فاكس 4650624 00962
البريد الإلكتروني: info@daralmanahej.com

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي من أصحاب الحقوق.

هامّ جدّاً: إن جميع الآراء الواردة في الكتاب تعبّر عن رأي كتّابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر...

استهلال أول

«في البدء النار كانت تسري وحدها
تأكل اليابس وتترك الأخضر للناس
ثم بدأت تأكل الأخضر واليابس»

ميثولوجيا جديدة

«رأى الحبل النار تسري فحلم في أن يقلدها
لكنه نسي نفسه فظنته النار أفعى»

ميثولوجيا جديدة

«ذهب الطائر أبو الحن باحثا عن النار التي احتكرها فرد واحد فجلبها لكنه أحرق ريشه في أثناء نقلها عندذاك اشفقت الطيور عليه وحسمت أمرها أن تكسوه حلية جديدة بإعطائة ريشة من كل طير ولم يمتنع إلا البوم المتعجرف صاحب القلب القاسي لهذا السبب حينما يظهر طائر البوم في النهار تصرخ فيه جميع الطيور زاجرة ومنها أبو الحن الذي يوبخه على عجرفته».

ميثولوجيا من بريطانيا

1

تذكر تذكر

الخامس من نوفمبر

المؤامرة والخيانة والبارود

لم يكن هناك من سبب للبارود

لكن لا أحد ينسى ذلك[1]

إنها ليست المدينة الأولى التي هجرتها بعد بقائي فيها عشرة أعوام، عقد كامل نقضته كساحرة تركب مكنستها وتبحث عن مكان جديد، وهو ليس بأطول نهار عهدته من قبل، فيوم القديس هانس يطل علينا في الصيف.. بالضبط يوم الرابع والعشرين من حزيران حيث يبرز تموز بكل قوته من أعماق العالم السفلي فيغطي الأرض بالخضرة والحياة والنشاط عندئذ

---

(1) النص الإنكليزي أغنية شعبية كانت الأمهات يعلمنها أطفالهن في خمسينيات القرن الماضي:

Remember, remember, the fifth of November
Gunpowder, Treason and Plot
I see no reason why Gunpowder Treason
Should ever be forgot.

تشخص الدمى العملاقة معانقة الفضاء في الوقت نفسه تمتد ألسنة اللهب إلى السماء فترى النور يبرك على الأرض كالبعير ولايغادر.. كانت عيناي في هذه اللحظة تتابعان رحلتهما من الشرق إلى الغرب وكنت أعود متأخرا إلى الخبر الجديد فلم تفدني أيّة محاولة قط للسباق مع الزمن كأنني وجدت نفسي مثل خيط من المطاط مربوط إلى خشبتين تقتربان فأضيق أو أتمدد وأنكمش.

كنت متلهفا إلى هذه الليلة ليلة 24 من حزيران.

وإن كنت قد نسيتها قبل أن تطأ قدماي مدينة الألعاب وساحة "فورست فيلد".

غدا يحدث شيء عظيم.

العالم كله يتابعه من أقصاه لأقصاه فلا يحق لي أن أتجاهله وحدي!

فجأة برزت من مكان مجهول ليلةُ تجمعت فيها النيران منذ عام 1605 فاستهلكتني تماما..الجو بارد.. وتموز يلملم شتاته..لفحة هواء تعري الأغصان عن آخر ماتشبث بها من ورق مصفر.ماذا بقي غير بيت ذي كوى تسري فيه النار؟ حقّا شعرت ببعض دفء حملته إليّ عن بعد ألسنة اللهب مع ذلك لا أغفر لنفسي الخطأ في كوني تركت النوم يسرقني والأرق يلوي عينيَ.كان كدس الخشب كبيرا وثمة على بعد في مدينة الألعاب صوت قويّ مدوٍّ يسبق ساعات اللهب..الجميع يتساءل:

متى تشتعل النار؟

أحد العمال المسؤولين عن نار سوف تسري لحظة ما صاخبة الملامح يلتفت:

- ليس قبل التاسعة.

- أووه مازال الوقت مبكرا جدا!

نساء وأطفال وشيوخ وعشاق ينتظرون وأنا أنتظر بعد الساعة التاسعة التي ظهرت لي عرضا إحدى ساعات الصباح.

أسأل نفسي هذه المرة:

متى يتم النطق بالحكم فأمامي وقت طويل.

"كاي" أيها المتمرد لم أعرفك من قبل ولم تربطني بك أية علاقة لكني واجهتك الليلة مع النار، وسوف أواجهك مع الحبل حرقا بالنار أم شنقا. لايهم.. الموت واحد وإن تعددت أشكاله وألوانه.. خلال السنوات الماضية في أطول نهار يلتبس بالليل القصير شاهدت حرق الساحرات.. تمثال مثل تمثالك وكان سيادته هناك بعيدا عني في مدينة الشرق لم يرتق المشنقة بعد.. أطول نهار في الصيف يؤذن بحرق الساحرات.. مسيرات طويلة ومظاهرات صاخبة يراودها عطش شديد منتصف ظهيرة تموز القادم من عالمه السفلي.. لهب جميل نلتذ بمراقبته ومن قبل شاهدت مدينة تحترق وشممت روائح لجثث مشوية.. مثلما أنتظر النطق بالحكم تنتظر النساء.. الأطفال.. العشاق.. كلّهم ينتظرون النار. الكدس

الخشبيّ المحاط بأسلاك رأيته اليوم من بعيد.في البدء خلته كوخا قديما، وتذكّرت أنّ عليّ هذه الليلة ألّا أسهر إلى ساعة متأخرة، ففي غد يتمّ النطق بالحكم. الحبل يعقب النار.. كنت أراقب الألعاب النارية التي انطلقت قبل سريان الحريق، وأنتظر الغد. بين توقيت مدينتنا ذات الضباب ومدينة ألف ليلة وليلة العجيبة ثلاث ساعات. سأترك النار بعد لحظات لأعود إلى منزلي. ففي هذه اللحظة المارقة أبصرت عدوّ الملك الإنكليزي يحترق داخل الكوخ. "كاي" ذلك المتمرّد الكاثوليكيّ. براميل متفجرات مزروعة في القبو تحت الطابق الأرضي. عاش الملك.. عاش صاحب الجلالة.. يسقط الخائن. في اليوم ذاته أسمع في بغداد دوي انفجارات.. قتل.. حرائق.. سيارات مفخخة. دراجة ملغومة.. انتحاري يفجر نفسه بسوق شعبي. عملية النار الكبيرة أصبحت أمامي لعبة تشتدّ .. تتعالى.. وترتفع بعيدا.. تهم بعناق السماء. وأصوات الانفجارات تحيط بي كما يحدث هناك بصورة أخرى.. احتفالية حرق الكاثوليك.. البروتستانت انتصروا. اكتشفوا مؤامرة البراميل. أنت "كاي" وريث أبيك الوحيد يتيم ذو أربع أخوات.. قبل أربعة قرون عرفتني ولم أعرفك.. أربعة آلاف كيلومتر تفصلني عن بغداد.. جبال وسهول وبحار وصحارى.. وأربعة قرون عنك.. رأيت صورتك وسط أصدقائك. أي فنان استطاع أن يلم شتات وجهك فيوصل إلي أنا نزيل القرنين العشرين والحادي والعشرين وجهك. كنتَ دائم الابتسام بشوشا فرحا بثروة أبيك الطائلة التي ذهبت إليك كلها من دون أخواتك حين بلغت الثامنة عشرة من عمرك، فلم

اخترت الصفقة الخاسرة. ؟ لم هجرت مذهب أبيك والتحقت بزوج أمك.. المفارقات التي بدأتها يا "كاي" وصل إلي شررها عن بعد.. استطعت أن تهاجم وتقتل تبحر من أسبانيا ثم تعود لإنكلترا.. أيها اليتيم املأ براميل بالبارود وكدسها في قبو أسفل البرلمان، فهاهو سيادته يستطيع أن يقتل.. يقف في شارع الرشيد ويطلق النار على موكب السيد رئيس الورزاء الزعيم المحبوب.. يهرب إلى دمشق والقاهرة لكن المقصلة كانت ترفرف على رأسك:

- ماسمك؟

- كاي فاوكس

- رئيس جمهورية العراق

- اسمك اسمك

القاضي يسأل بانفعال فيرد:

- انت تعرف اسمي حق المعرفة

أنتما تلعبان بالنار وأنا وحدي أراقب اللهب من خلاله أرى الملك يحرق أعداءه وأنظر إلى الحبل.. البارود وحده يتكلم في الشرق والغرب خذ قليلا منه. استفد من إعلانات التلفاز.. تخلط المواد بدقة متناهية ثم توجهها أينما تشاء.. تلك تسمى أسلحة الدمار الشامل. القاتل واحد هناك شخص حاول نسف البرلمان على رأس الملك جيمس الأول وتابعيه المطيعين ثم مضى في سبيله ليلقي حفنة من الغاز على قرية صغيرة:

- صف لي بالضبط ماذا رأيت.

- سيدي القاضي صباحا . . .

- هل تذكر الساعة؟

يسعل العجوز المترهل الوجه ذو الفم الأدرد ويواصل:

- ربما الحادية عشرة.

- نعم أكمل.

- سيدي القاضي رأيت طائرة تقدم من جهة الشرق طائرة من طائراتنا.

- من أي صنف؟

- سيدي القاضي أنا رجل لاعلم لي بصناعة الأسلحة لكني أستطيع أن أميز طيراننا من طيران العدو قدوم الطائرة من الشرق أو الجنوب يعني أنها عراقية وقدوم أية طائرة من جهة الغرب يدل على أنها تابعة لطيران العدو.

- ماذا حدث بعد؟

- سمعنا صوت انفجار ثم فاحت من القرية المجاورة لنا رائحة تشبه التفاح العفن!

يعلق محامي المتهم:

- هذه رائحة ثوم!

أنا أيضا شممت رائحة العفونة بين النخيل. هو نفسه الذي سماه الناس فيما بعد الكيمياوي. . لقد كان الولد الشقي

يكره "حميرة"[1] تفتك بالنخيل وتفسد التمر. رآى أباه والآخرين يجلبون البودر الكيمياوي ويخلطونه بالماء.. ثلث بثلثين.. الكبار يتقنعون بالنظارات.. الواقيات على أنوفهم ويحملون فوق أكتافهم مرشات كبيرة يوجهون خراطيمها نحو العذوق:

- هذا هو الكيماوي إذن!

- هل أرش؟

يسأل الطفل أمه، فتجيب:

- مازلت صغيرا.

- متى أرش؟

- عندما تكبر.

حين يصبح صبيا يستبق الزمن.. يأتي بالكمامة والنظارة.. يتقنع.. يمزج الطحين الكيماوي بالماء.. يطوق النخلة بالفروند[2] ويحمل المرش الضخم يتسلق كُرْبة كربة.. أما الولد الشقي الآخر فيقول له خاله الغني.. هاك المسدس.. هناك شخص لاأحبه.. كافر.. زنديق لايؤمن بالله يخرج من المقهى في ساعة متأخرة من الليل تستطيع أن توجه رصاصة نحو صدره لكن ذاكرة المحكمة تنسى واقعة المقهى وتتذكر حادثة الهواء الملوث بمادة كيمياوية غريبة وفي غد ينطق القاضي بالحكم..

---

(1) الحميرة داء يصيب التمر في بدايته ويعالج برش خليط كيمياوي.

(2) الفروند آلة يصعد بها المتسلق النخلة.

هل هي المصادفة وحدها ؟

في بريطانيا تشتعل النار ويحتفل الناس بقتل "كاي فاوكس" في مطلع الشتاء.. العام الماضي كنت في الدانمارك.. حضرت احتفاليتهم.. آخر احتفال حضرته هناك.. كانوا يشعلون نارا عظيمة ثم يلقون فيها بدمية كبيرة تتقمصها روح ساحرة شريرة. رائحة تحمل عبق الماضي إلى الحاضر تلتهمها النار.. أطول نهار في اسكندنافيا تشهد نهايته حرق ساحرة كبيرة، وضعت يدي على كتفها وتابعنا الزورق الصغير.. اقتربت منها فاحتك جسدها بضلوعي وكان الزورق يمخر ماء البحيرة هادئا حتى وصل إلى جزيرة صغيرة تكدس فوقها تمثال الساحرة.. وضع صاحب الزورق المشعل أمامه واوقد النار ثم رماه فوق جثة الساحرة فتطاير الشرر ولعبت الريح بأعواد القش. كانت تتذكر مراسيم سابقة حضرتها في منتزه "بيسبه بياو" القريب من سكني هناك كدت أحتضن النار التي لم يفصلني عنها أي حاجز سوى الناس:

- العام الماضي كنت قريبا من النار ودفئها .. إنها بعيدة الآن!

- هل تشعرين بالبرد؟

لكن اليوم الذي يستبق عواصف الشتاء ليس بأقصر نهار هو ولابأطول ليل. يوم عادي تماما فيه أحرق الملك أعداءه. ليلة الأحد الحالي.. لاتهم السنة وترتيب الفصول أو طول النهار والليل. في هذا اليوم عرفت فقط أنّ الملك جيمس الأول اكتشف المؤامرة، 36 برميلا مملوءة بالبارود كانت كافية

لتفجير البرلمان. يا "كـاي" الإيرلندي. قصتك تعود الليلة بأشكال أخرى في أماكن بعيدة عنك أمّا صديقتي الدنماركية الهادئة العذبة "دوغت" فتشير بإصبعها:

- أنظر إلى الشرر!

أكرر قولي:

- هل تشعرين بالبرد؟

- فقط رجفة في الكتفين.

أخلع سترتي وأضعها على كتفيها. كانت تحبني كثيرا. شهدت معها كلّ عام حرق الساحرات.

- لِـمَ الساحرات وليس السحرة؟

تبتسم وتقول:

- كنّ هنّ الأقوى وهنّ المتحكمات بكلّ شيء ولاتنس أن أول عبادة بشرية ظهرت على وجه الأرض وأول دين للرجل كانت المرأة.

- لكني أحب الساحرة الطيبة.

- الهيكس فيهن طيبات وشريرات بيد أن عدد الشريرات لايحصى لذلك نسي الناس الطيبات !

- هل قرأت عن واحدة طيبة؟

- بالتأكيد ثم لاتنس أن كثيرا من الساحرات أجبرن من قبل رجال الدين على اعترافات كاذبة لتتصور أنه عالم المؤامرة الذي يقتل 9 ملايين ساحرة مقابل 50000 ساحر فقط!

كم قلتِ؟

تسعة ملايين نعم . . .

فازدردتُ ريقي وابتسمت:

العجيب في الأمر أن المسيحية دين متسامح كيف بلغ الأمر . .

فقاطعتني وهي تميل برأسها على كتفي وتغمز بعينها عن غنج:

إنهن حليفات الشيطان!

كيف تجبر شخصا على أن يعترف أنه ركب مكنسة؟ الشيطان يظهر في قط أسود. . كلوا أطراف الأطفال الذين قُتِلوا على أيدي الغيلان. . قبلة على العضو الجديد. . نقش فوق الأرداف وفي الدبر. . تقديس العضو الذكري. . الانتصاب. . الفحولة. . الصلاة للفروج. . جنين مهروسٌ في جرن يُتَبّل ويُخلَط بالعسل والفلفل وهذه السيور التي يُجلَد بها ردفا المرأة الجاثية كالقطة في الفراش عند مضاجعتها مصنوعة من جلد تيس ومخضبة بدمه . . إن هؤلاء يأكلون اعضاء الأطفال الأحياء ومازال الشيخ القط الأسود يصيح: أوقفوا الضوء فليفعل رجل مع امرأة وامرأة مع امرأة وليلتحم رجل برجل إن لم يكن فالأب بابنته أو الأم والأخت مع أخيها. كان ابنا آدم يضاجعان اختيهما ومن اللهاث تسلل رهط من أجدادي الذين نصبوا نيرانا فوق قمم الجبال وكان أيضا يسري عبر أعماق الجزيرة العربية إلى بيت امرأة رفعت راية لهم فعاشروها

جميعا كل حسب دوره وبعد تسعة اشهر اختارت واحدا مهم فأصبح أبا لابنها . . لعلك تشمئز أو تسخط وربما تضحك حين تعرف أن معظم أجدادك الفاتحين كانوا من أبناء ذوات الرايات الساحرات. . كانوا عنيفين. . أقوياء. . أناحصان أنا عنزة . . أنا حمار، وما نادى به دعاة الشيطان من قبل أصبح شيئا مألوفا اليوم. . الديمقراطية. . حرية الرأي. . إذا كان الناس يزنون ويلوطون ويعاشر بعضهم بعضا فلم يحرقون الساحرات كل عام. . وهل نسوا الشقة التي أسكن فيها أنا الهارب من قرون الحرق. . المختبيء في مدن الضباب عن عيني تموز. . هناك في الطابق الثالث من العمارة ذاتها شقة تسكنها سحاقيتان نشرتا في لوحة الإعلانات عند المدخل الرئيسي للبناية عن حاجتهما لسائل منوي تتلقحان به فتصبحان أمين. إنه قداس المني ورغبة الأمومة التي تسري في البشر والحيوان والحشرات وأدق المخلوقات. . ليس بالضرورة أن أعرف أبي لكني أعرف أن أمي واحدة من آلاف النساء اللائي يُحرَقن الليلة. لست أنا أقول ذلك ولا "كاي" صديقي وعدوي الجديد أو أية ساحرة ولا شخص سوف يُحكَم عليه غدا أو الليلة وفق اختلاف التوقيت بين مدينتين فهي النار التي تتصاعد وحدها محملة بخطايا البشر ورغباتهم وشظايا الساحرات إلى السماء يقترب لهيبها مني فأشعر بالدفء وقد رأيت الحبل يسري قبلها أما أنا فربما دفعتني براءتي ذات يوم أن أصادق الشيطان نفسه. . رأيته في أحد الصبيان كانت أعمارنا بين الثالثة والرابعة لكن المشهد نفسه استعصى على الذاكرة فلم يفارقها . . كبيرنا جعل نفسه إماما علينا وراح يهتف بنا :

صلوا صلاة ابن آوى!

كنا نجيب بإصرار:

لن نصلي

ثم يرجع وينادي:

صلوا صلاة الشيطان

فنقول ثانية:

أبدا لن نصلي

ثم يصيح بصوت مستبشر فرح:

صلوا صلاة ربكم

فنقول: نعم نعم نصلي[1]

نصطف خلفه ونبدأ الصلاة.. ذات يوم شذ أحدنا قد أكون انا هو ذلك الطفل أو غيري فالمسميات لاتهم ولاتعني السنين والأمكنة شيئا.. حالما صرخ كبيرنا صلوا صلاة الشيطان انطلق منا صوت يقول نعم وانفرد عنا وهو يعوي ثم انهزم قبل أن نلحق به فننتقم منه شر انتقام ويبدو أنني نسيت تلك الحادثة حتى رأيت النار تتوهج بالقرب مني ليكتسح لهيبها كل نجاسات العالم وسمعت صديقتي الطيبة تحكي لي عن

(1) لعبة شائعة من لعب الأطفال في البصرة إلى نهاية الخمسينيات.

تسعة ملايين ساحرة أعدمت في أوروبا :

- في الماضي كن يُسلّخنَ وهن على قيد الحياة من أجل أن يلبس الآخرون جلودهن المدماة ربما لأنهن شيطانات جعلن من نجاسة البول والحيض والمني شرابا يعمل أثره في الحب والكره ولعل إحداهن لاذنب لها سوى أنها زوجة أب !

- طيب اسمعني عن ساحرة وقفت بوجه الشر.

- هل تذكرت؟

- هناك فتاة طيبة تعلمت السحر من باب الهواية لا الاحتراف. ذات يوم رأت ساحرا شريرا صار أفعى فتحولت إلى عُقاب وهاجمته كانت تنوي أن تقضي عليه لتريح الناس من شروره فانقلب إلى حب رمان فصارت ديكا. كلما تحول الشرير إلى شيء تصبح هي شيئا آخر أقوى منه إلى أن قضت عليه!

- قضت عليه وحده؟

في تلك اللحظة المتجلية من عام 1400 وعبر نسائم ألف ليلة وليلة وصل دفء النار إلى وجهي ساعة آذنت الشمس بالمغيب فسمعت حسيسها ورأيت ألسنتها. . العام يعيد نفسه كلّ سنة في أطولِ نهارٍ ومن أجل ساحرة تستوحي الدنيا تهويمةً ذات بهاءٍ ملونٍ وتتوقف الحركة: المطار يغلق. التجوّل يمنع. حالة طوارىء. وأنا أغادر قبل عام مدينة كوبنهاغن إلى نوتنغهام. لم أشك في أنّ "دوغت " تقبل الهجرة معي. مادمت أستطيع أن أجد عملا في بريطانيا فهي تقدر أيضا. الحق إنّ سلوكي صدمها إلى درجة خرجت عن برودتها المألوفة

واسترسلت في إزجاء النصائح. قالت هنا الأحوال أفضل. الضمان الاجتماعي. الحياة التي تعودت عليها. الأمان. هناك الصخب، والجريمة.. العنف.. والأهم إنها لاتضحي بعملها. أكدت أننا نظل أصدقاء يمكن أن يزور أحدنا الآخر.. بعد حرق الساحرات مباشرة غادرت إلى نوتنغهام، يبدو أنها كانت على حق فلم أدر أني سأودع الأمان. الكنار الصغير إسكندنافيا يوحي إليك ألا مشاكل في العالم. أحيانا أكتشف بعد عودتي أني نسيت باب الشقة مفتوحا ولم ينقص شيء مما في المنزل. قالت إني قد أشعر هنا بالغربة وأضيع في الضباب لكني في مكان آخر أعاني من القلق ثم اكتشفت أن الإنكليز المرحين وهؤلاء الآسيويين والافارقة يمكنهم أن يطردوا الكآبة عني مع ذلك من المحتمل أن يداهمني أي منهم بهدف السرقة أو من دونما سبب، وفي هذا اليوم رأيت من بعيد الآلاف يحيطون بالكوخ. يدعونني إلى احتفالية حرق. حين اقتربت لم أجد "كـاي" الكاثوليكي لكني سمعت أنهم يحرقونه الليلة، وقد تيقنت تماما أنه أحد السحرة فربما اعتاد الناس في هذه البلاد على حرق الرجال من دون النساء!

للمرّة الأولى أحسّ أنيّ محاصر بأكثر من حفل في وقت واحد وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة والوجوه والألسن. القاضي النحيف الأسمر يطلّ من اختلاف التوقيت ويدعوني لحضور النطق بالحكم.

- هل دخلت السجن؟

- نعم!

- هل عذبت؟

- نعم!

- كم مرّة؟

- لاأذكر.

- هل قتلوا أحدا من أهلك؟

- جميعهم!

- أين؟

- في الدجيل!

- متى؟

- في الأنفال!

- أقول متى؟ انتبه للسؤال!

- لاأذكر!

الإدعاء العام يعترض على الأسئلة. الأنفال هي تاريخ بحدّ ذاته. أصبح الناس ياسيادة القاضي يؤرخون بها. تقول شهادة الطبيب إنّ التعذيب أدى إلى إصابتي بلوثة وخلل، فلم أعد أميّز كوني كرديا أم عربيا من أهل حلبجة أم الدجيل أو البصرة، وعلى الرغم من منطق الإدعاء، وكوني مختلا عقليا، فقد استطعت أن أتحدث أكثر من لغة وأحصل على عقد عمل. المصادفة الوحيدة التي سرّتني وأزعجتني في الوقت نفسه احتفالية النار في أطول نهار، وصديقتي تعقب على سؤالي الساذج الغريب:

- اختاروا الساحرات كونهنّ أقرب إلى الطبيعة يلدن كما الأشجار وحيوانات الغابة، تخيّل ياعزيزي أميرا من الأمراء يلتقي في الغابة برجال سحرة سيكون المشهد باهتا لاحياة فيه.

- فعلا كم يكون مفتعلا لو التقى ماكبث في الغابة بعض السحرة!

- إذن هناك ساحرات طيبات أخبرن ماكبث بمصيره المحتوم غير أنه ساذج مثل أبيه آدم!

فقبلت جبيني وقالت:

- انتم لديكم احتفال بالنار أيضا!

- لسنا نحن بل الإيرانيون وشعوب آسيا الوسطى هم الذين يرقصون عند إطلالة الربيع فوق النار فلا يحترقون ولايحرقون بها تماثيل للساحرات إنهم يلهون بها لهو الصديق مع الصديق أما نحن فنحتفل على طريقتنا الخاصة بذلك اليوم الذي نسميه "الكسله"[1] كل منا يحمل رأس خس ويروح يقضمه بلذة ونشوة كبيرتين!

لاأدري لم أطل القاضي قبل دقائق فجعلني أفلت مثل اللص من عيد الكسلة.. الشنق. الرمي بالرصاص، نار الخامس من نوفمبر شخصت تدعوني إليها في الليل بعد الكسلة بسنوات، و المحكمة تستدعيني صباح غد. ثلاث ساعات الفرق بين التوقيتين. يبدو أن بغداد سبقت بسحرها الجميل

(1) في يوم 21 آذار يحتفل أهل البصرة بالربيع كل على طريقته الخاصة فيأكلون الخس ويطلقون على هذا اليوم اسم الكسله.

وجنياتها يقظتي . . معي الفضائيّات كلّها. 300 قناة تتحدّث عن منع التجوّل وإغلاق المطار. لديّ متسعٌ من الوقت لايكفيني. . إن أذهب إلى البصرة فلا أجد شط العرب أو أذهب إلى شط العرب فلا أجد البصرة فأعرف أن الأماكن تختلف مثل البشر وأني دخلت الدنمارك خائفا فخرجت منها إلى بلد آخر مثقلا بالحرية التي افتقدتها وانا طفل صغير لأظل أحمل مرض أجدادي الهائمين دوما بالرحيل!

تلك السنة من حسن الحظ لم تكن الغيوم لتغطي السماء. بدت الشمس تستعد للغروب وحاملو المشاعل يقتربون من تمثال الساحرة. النار بدأت تسري إلى السماء ولم انتبه إلى يدها تنسل من ذراعي راحت تعدل سترتي التي ألقيتها على كتفيها أحميها بها من البرد في الوقت نفسه وجدتني بعيدا عنها أقف وحدي في منتزه "فورست فيلد" أتطلع بدمية أخرى يختلف شكلها عن دمى الساحرات. لم أتوقع قط أني سالغي أكثر من عِقد. . امحو زمنا تشبع في ذاتي. . عشر سنوات تمضي هباء منثورا. . فأعود إلى نقطة البداية. أقف في ساحة وأشاهد نارا في زمن غير الذي اعتدت فيه على رؤية النيران. ليلتها منحتني نفسها بحرارة. . شيء طبيعي أن نلتقي وأمر طبيعي أن نفترق. . وعلى الرغم من صراحتها معي شأنها شأن أية أوروبية إلا أنها بدت تلك الليلة أكثر صراحة مما هي عليه. كانت تتحدث معي وكأنها ترى فيّ صانعا للفحولة. إله قديم عثرت عليه مصادفة . . مع ذلك نامت نوما هادئا ويدها تقبض على ذراعي. . كنت أتطلع بوجهها الهاديء فأجد نفسي أهرب من الضباب والكآبة إلى بلد يعج بالعرب والآسيوين والأفارقة

خلت أول مرة دخلت فيها لندن أنني في بلد شرقي لعله بغداد أو القاهرة أو بيروت . . مدينة شرقية هبطت من السماء أو التاريخ وربما الخرافة فاستقرت في شمال أوروبا :

- بريطانيا بلد الضباب لافرق بينها والدنمارك.

- نعم ياعزيزتي لكنها أكثر حيوية وأوسع صخبا فقد يلهيني الصخب وتأسرني والحركة !

لندن أم الدنيا أما أنا فيمكن أن أعدني مدفونا في مدن شقراء. . ومن محاسن المصادفة أني عثرت على شخص لاأعرفه وبعد أيام تطلعت في اليوم المشهود الخامس من نوفمبر وألقيت عليك القبض. . جئت أحذرك. . إنه يوم إعدامك "كاي فاوكس" . . ولدت عام 1750 في ابريل من عائلة بروتستانتية والدك مات وتركك مع أمك وأختين أكبر منك سنا وسرعان ماتزوجت أمك من شخص كاثوليكي ربما يكون هذا علة لتوالي المصادفات في وقت واحد بين بغداد ولندن بغض النظر عن فرق التوقيت. . ثم سرعان ما آمنت بالمذهب الكاثوليكي. . استلمت أموال والدك حين أصبحت في سن العشرين ثم بعد سنتين رحلت إلى اسبانيا. . هل كنت غبيا حين رأيتك تحرق أمامي وأنا أجهل من أنت. . لايهم فأنا أنتظر حكما آخر. مصادفة رأيت سيرة أجدادي أمامي. لعلك لاتعرف هذا عنهم. . إنهم أناس طيبون إذا كرهوا أحدا صنعوا له تمثالا من تبن وراحوا يصبون سخطهم عليه. . يسبونه . . يركلونه ويصفعونه وها أنا الآن جئت أحذرك حالما وقفت أمام النار على الرغم من أني رأيت وجهك الوسيم ذا الابتسامة

الواسعة والشارب المعقوف مثل سيف ثم وجهك ذا العينين القادمتين من عصر مغولي ووجها آخر تبدو فيه مثل طير مشوه. فمك منقار وعيناك كرزتان جاحظتان.. أي شخص فيك أخاطب؟ إني أدرك تماما أنك لست بساحر والحرق للساحرات اللائي يركبن المكانس ويضاجعن الشيطان والهررة السود أو يأكلن أطراف الأطفال الميتين. انت رجل انتحاري مثل هؤلاء الذين يلبسون الأحزمة الناسفة ويفجرون أنفسهم في بغداد ودمشق والقاهرة والمدن الأليفة الأخرى بالضبط تملأ براميل محشوة بالبارود في المخزن أسفل البرلمان وعندما يأتي جلالة الملك يحدث الانفجار العظيم أنت تُشنَق ودميتك تُحَرق كل عام.. مجرم ذو دمية ساحرة .. الوقت بداية الشتاء وانا وحدي.. تموز تركني ولملم أشلاءه منذ اشهر.. صديقتي الدنماركية رفضت الهجرة معي.. وجوه غريبة عني .. أناس لا أعرفهم.. كان هناك تمثال ومراسم حرق.. خشب وزيت وحارس.. بيني وبغداد ثلاث ساعات من الزمن القاسي أنتظر حكما آخر يصدر من هناك فجأة دميتك برزت أمامي من دون مقدمات.. فرصة ألتقط بها أنفاسي.. أتحايل على الزمن .. أستطيع أن أقضي نصف اليوم مع النار فأقف في مكاني لاأتحرك وعيناي شاخصتان إلى الدمية العملاقة!

مع ذلك أعترف لك أني شاهدت حرقك قبل أن أعرفك ربما هو الخطأ الوحيد الذي اقترفته دون أن أدري.

استهلال ثان

«كانت الأرض تتوشح بأكثر من خط . .
كلما عبر الإنسان خطا نقص عمره يوما
حتى خشيت على أبنائها من الفناء فتجردت من كل
وشاح ماعدا خطا واحدا يفصل بين الشرق والغرب»

ميثولوجيا جديدة

«الساحرة تركب مكنسة تطير بها
وهناك عظيم قوي يجلس على كرسي مذهب بالنفائس
سقطت الساحرة من على مكنستها فظن الآخر أنه غير
معني بالأمر»

ميثولوجيا جديدة

«اختص زعيم القبيلة وحده بالنار فجاء أحد الشباب
وسرق طفل الزعيم بدأ الزعيم في البحث عن طفله
وعندما عرف أنه في حوزة أحد الشباب ذهب خلسة
وساومه. عرض عليه أن يعطيه النحاس والمال مقابل أن
يرد طفله لكن جدة الشاب رفضت وصرخت بحفيدها :

لاتقبل إلا بالنار
اخيرا رضخ الزعيم وأعطى الشاب النار فأخذ طفله ورجع إلى بيته».

من أساطير الهنود الحمر
في امريكا الشمالية

«حين زفت سيتا إلى راما قال أبوها للعريس:
هذه سيتا ابنتي زوجتك
خذها وشد على يدها بيدك
ستبقى منك كظلك
تابعتك إلى الأبد»

من قوانين مانو

2

الآن لم تغرب الشمس بعد!

الوقت لمّا يزل بعيدا عن أناملي.. ربّما أغفو الساعة الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل فأستيقظ الساعة الخامسة صباحا هناك حيث أرى شخوصا كثيرين يُنطق بحقّهم حكم الموت.. قبل النوم حكم وفي اليقظة هو الحكم ذاته. هي المرة الثانية أتابع فيها محكمة تعقد لزعيم يواجه حكم الموت. قبل سنوات تابعت " شاوشسكو" الذي سخر من المحكمة وظل طوال الوقت يضغط على يد زوجته وكأن شيئا لم يكن. قرار أعرفه منذ زمن لكن يظلّ سرا لذيذا كأني لاأعرفه أبدا. اليوم السادس من سبتمبر يصدر حكم جديد. الخامس هنا في بريطانيا حرق.. أصوات.. نار.. مفرقعات.. بغداد.. لندن.. نوتنغهام. ياسيادة القاضي لديّ اقتراح أن نشعل نارا ضخمة ونصنع لهؤلاء المتهمين مجتمعين تمثالا واحدا من خشب وورق نرميه فيها.. لعبة يتحول فيها حبل التف على رقبة كاي إلى لهب، أمّا إذا شكّ أحدهم بسلامة عقلي، فيمكنه أن يجد الشاهد في مدينة الألعاب التي خلّفتها وراء ظهري لألتفت إلى النار. مدينة كاملة احتضنت كل شّيء. لم تكن مثل هذه الحياة موجودة قبل اليوم. إنارة.. أصوات... أضواء

تدور. شواء تلفح رائحته الأنوف. صوصج الخنزير المقلي ومعجون الخردل.. عربات تشوي الكستناء.. موسيقى. وقفت أمام السياج الفاصل بيني وألسنة الدفء وبين المظاهر الحيّة التي تشهد لي في يوم غد عن خبر آخر. قبل عام لم يكن ليفصلني عن النار سوى جزيرة صغيرة. أكداس من الخشب والورق المقوى، وإذا بالنار حالما تغيب الشمس تهب كمن ينتفض من كابوس ثقيل، فتقول وهي تميل عليّ حتى يلاصق رأسها كتفي:

- هل رأيت مثل هذا من قبل؟

- كلّا!

ثمّ طبعت قبلة على جبينها أداري بها كذبي. كنت أكذب وأشهد أني أكذب. هناك في إحدى النهارات مارست الحرق. لم تكن مدينة الألعاب موجودة فقد أحضروها هذا الصباح. فجأة رأيتها، مثلما رأيت مدينة نحاسيّة جميلة، تقدمت مع الآخرين اخترقنا كالجرذان الشوارع. دخلنا أنفاقا... صعدنا جبالا... كنا نحرق البيوت... عبث.. لعب.. إنه مجرد لعب... كنا نسير وروائح الجثث تلاحقنا. ثم جاءت أوامر لاأدري من أين... إسمعوا كي لاتصابوا بالطاعون... أحرقوا الجثث قبل أن تتعفّن. صببت على جثّة نفطا أحدنا قهقه وألقى تحتها بعض حبات الكستانيا!

- كم جثّة أحرقت؟

- واحدة

- لذكر أم نثى؟

- لاأذكر.

- هناك فتوى في جميع المذاهب الإسلامية إذا كثرت الجثث خلال الحرب داخل أية مدينة فيجوز حرق الموتى تفاديا لانتشار مرض الطاعون!

مدينة بكاملها تحترق. سكانها الصامتون المحملقة أعينهم في السماء يحترقون. حيواناتها.. أشجارها تحترق. وفي طفولة ممسوخة على بعد خطوات من الذاكرة يتجمّع صبيان حول جثة قط لم أدرك لونه يخرج أحدهم علبة فيها سائل شفاف يسكبه على الحيوان في حين يدني آخر عود ثقاب ملتهبا منه... يشتعل القط:

- حسنا الكبار يحرقون الأحياء المتعفنين والصغار الحيوانات الميتة.

ظل الأطفال بملابسهم الزاهية الغريبة التصاميم يقفون صفا طويلاأمام برميل بوجه قط أسود ثم يتقدمون واحدا واحدا فيطرق كل واحد منهم بعصا غليظة البرميل حتى تسقط منه رزم الحلوى وهم يغنون:

فست لاون هو اسمي

أرغب في الحصول على بعض الكعك

إذا لم احصل على الكعك

فإنني سوف أعمل مشاكل[1]

فتشيع جنبي رائحة مقرفة من دخان يتلوّى كأفعى :

- تدخّن؟

- كلا.

- جرّبه إنّه لذيذ.

- أبدا.

- كيف إذن تنسى؟

- ولِمَ أنسى؟

- النسيان نعمة.

تنتقل عيناه إلى القدر فوق الحطب، وفي ظهري تنغرز مدينة الألعاب الصغيرة التي نشأت هذا الصباح. سوف تغيب تماما عندما تنتهي مراسم الحرق. طبخنا اليوم غداءنا على حطب يحرق موتى. لم أتحرر بعد من رغبتي العارمة في ملاحقة الأشياء. ولم يشهد لي أحد من توبة في ذلك سوى سيدة في أقصى شمال أفريقيا تدخل مقبرة وتجلس عند قبر جديد، تشعل نارا مثلي ثم تخرج يد العذراء من الضريح تضع

(1) كلمة " فسته لاون تقابلها في العربية كلمة " ايام المرافع" والنص الدنماركي كما يلي:

Fastelavn er mit nanvn
Boller vil Jeg have
Hvis jeg ingen boller før
Sø laver Jeg balade

الملعقة بين أصابع الميتة وتواصل طبخ "الكس كسي" على نار هادئة قبل أن يطل الفجر وينكشف المستور، ظننتُ أنها تفعل ذلك إما انتقاما مني بسحر أو حبا فِيّ بَسحر لايبين مفعوله إلا مطبوخا بيد عذراء ميتة في الوقت نفسه ركلت النار والقدر هاربا وجلست في مدينة ما جنب حشاش يشوي الجوز على جثة تحترق، ولعل للجثة فرقعة تشبه فرقعة الكستناء، أمّا النار في رأس السنة فكانت غير بعيدة عنّي، أقهقه فيستفزني الحشاش الذي احترف مهنة حرق الجثث:

- هكذا يحرقون في الهند الموتى.

- الهند؟

- إن كنت لاتطيق هذا الفعل فانصرف إلى البيوت الفارغة فلعلك تجد شيئا جديرا بالنهب!

"كـاي" يهذي مثل المقاتل الحشاش الذي احترف حرق جثث الموتى والطبخ وشي الجوز على لهبها يريد أن ينسى لكن ما الذي يمكن أن ينساه؟الموت من حولنا أم جثث القتلى التي يمكن أن تتحوّل إلى طاعون؟أمّا أنا فلديّ وسيلة أخرى يمكن أن أمارس الفعل وعقلي شارد في مكان آخر أستطيع أن أكون في مكانين في اللحظة ذاتها:

- كم بيتا أحرقت؟

- لاأذكر؟

- كم شخصا قتلت؟

- لم أقتل؟

- كيف تذكر هذا وتنسى ذاك؟

لكي أتخلّص من الجميع أترك الحشّاش عند الجثة يواصل عمله وأغادر إلى أحد البيوت المهجورة. كان هناك غيري يتوزعون على البيوتات المتناثرة في السهل وبين التلال فيشعلونها لتبدو المدينة مثل مركب يتعالى من مدخنته غبار كثيف يطوّح به الهواء باتجاهات بعيدة. كنت أمارس الطقوس وحدي. أفتش المنزل وأطّلع على بعض أسراره. أدخل غرف النوم... المطبخ.. الحمّام.. وبعد بضعة أيام ليلة رأس السنة تنطلق السماء من سكونها في الظلام فتشتعل الأجواء بالألعاب الناريّة. أخرج قبيل منتصف الليل ألعب مع اللاعبين. أطلق أصابع الديناميت، أراقب ألوان المفرقعات الزاهية في السماء.. ألوان.. أحمر... أخضر... أصفر... بتفسجي... وحين أصحو متأخرا أجد بعض الحرائق شبت في المدينة والعالم كله.. ، سنة جديدة تأتي وأجدني راقبت جيدا ليلة الخامس من نوفمبر إحراق جثة المتمرد "كاي "في كل مكان لأعود إلى قبر من القبور الجماعية في الدجيل أو الأنفال وربّما أساهم مع الجنود الحشاشين بحرق مدينة ما هربا من مرض الطاعون، ولعل هناك شخصا يبعد عني آلاف الأميال سمعته ذات يوم يفصح عن نيته في حرق دولة ما أو نصفها فهل أصيب العالم بالطاعون:

- سيدي القاضي يدعي أنّه أحرق ذات يوم وأنهم أحرقوه.

- سيادة القاضي الصدمة أفقدته عقله.

- لهب يبعث الدفء!

- ماذا؟

تظلّ تلاحقني بسؤالها الغريب:

- هي المرّة الأولى التي تشاهد فيها مثل هذا الحفل؟

نعم.

كنت سمعت عن الساحرات. حذرتني والدتي والناس من السحر.. السحرة يفعلون الأعاجيب يجعلون فلانا يكره فلانا وفلانة تحب فلانا. السحر مخيف وهو مذكور في القرآن.. الرسول نفسه استعاذ منه فإذا ماقابلت امرأة لاأعرفها ومسحت على رأسي فإني اقرؤ المعوذات الثلاث وأبصق جهة اليسار.. السحر يأخذ اشكالا متعددة الملاح ولايستثني القط الاسود وعندما وطئت قدماي أرض الشمال تمتعت كل عام بمنظر الشرق في أطول نهار ورأيت النار التي تلتهم التماثيل!

لكني هذا العام أحتفل وحدي!

وهي بعيدة عني في أحضان رجل آخر لاأتخيل شكله.

تواصلنا عبر الهاتف أكثر من ستة أشهر ثمّ اختفت. اتفقنا على أن نبقى أصدقاء ويبدو أنّها وجدت أنّ من العبث أن تستمرّ معي.

- هل أنت بخير؟

- ماذا عنك أنت؟

- صحتي جيدة.

- أين تسكن الآ ن؟

- في نوتنغهام!

- لكنك كنت تنوي الإقامة في لندن؟

- السكن في لندن جحيم.. لايطاق أما هنا..

- كم تبعد نوتنغهام عن لندن؟

- ثلاث ساعات بالحافلة.

- حسنا انتبه لنفسك!

هل تفكرين بزيارتي هنا في بريطانيا؟

- لاأظن في الوقت القريب.

أجل لم تؤمن بالرحيل مثلي. فكرة أقرب من المحال لكن روح أجدادي القلقة تظلّ تلاحقني حتى لو عشت في مكان يغطيه عشب وماء.. حين دخلت الدنمارك تنفست الصعداء.. كانت هذه البلاد هي الجنة الموعودة.. كأني خرجت من الجحيم إلى الفردوس وبعد عشر سنوات حاصرني الضباب والصمت. بدأ الظمأ يجبرني على التنقل. أنت بعيدة عنّي بالضبط تفصلني عنك مسافة كما يفصلني هذا الحاجز المعدني عن شبح "كـاي" الخشبي. كنت معك وهناك شهدنا معا حرق الساحرات لكنّ أطول نهار في العالم لم يمتدّ إلى مناسبة أتطلّع نحوها منذ سنين كما سيحدث في فجر اليوم التالي... الليلة يُحرَق "كـاي" وصباح الغد يُشنق الدكتاتور:

- اتصلت بكِ عدة مرات فكان هناك شخص يرد علي!

- أووه عزيزي إنه صديقي "سمث" أنت تعرف هنا الوحدة قاتلة أرجوك افهمني سنظل أصدقاء "سمث" شاب طيب أرجو لك كل سعادة.

المرأة الأمازونية لم تقدر على العيش من دون رجل لم يكن الخطأ خطأي لأني لم اعتد البقاء في مكان واحد. كان هناك أكثر من دافع يشدني للرحيل:

- وأنا كذلك!

- متى يبدؤون؟

- بعد لحظات.

الواقف جنبي يضمّ صديقته، أسمع صرير أنفاسهما. ينصرف عامل يرتدي بدلة صفراء إلى براميل النفط والبخار ينتاثر من فمه.. الناس يتقاطرون عند الحاجز.. البرد لايأتي هذا المساء على استحياء ولم يعد هناك كثير من الوقت. وأنا بانتظار اللعبة كأيّ طفل. مللت مدينة الألعاب الصغيرة. لاأرغب في دولاب الهواء أو الأرجوحة، وكرهت متاهة الطريق، أريد أن ألعب بشعلة النار مثل هؤلاء، إذا انتهت قاذفة الشرر، وخانتني النقود هرعت إلى عود يابس أشعل فيه النار وأهزه في الهواء فأرى لهبه يتناثر في الهواء:

- ياولد إن تفعل ذلك تبل في الفراش.

- عندنا في الدنمارك مثل هذا الاعتقاد.

كلّ شيء أمام عيني يتحوّل إلى لعبة من نار. الهواء البارد.. بخار الأنفاس.. الضباب المتصاعد من المداخن.

بعض الغيوم المتحشرجة في حلق السماء. الحبل الذي يلتف على عنق متمرد يصبح بعد قرون لعبة من لهب.. في تلك اللحظة سكن الأنين داخل مدينة الألعاب.. وتركت الدكتاتور في القفص يزعق. الأعين شدت إلى رجال يرشون الوقود على الحائط يدورون مع الكوخ ينقعونه بالنفط. يتراجعون إلى الخلف يعودون أدراجهم إلى مشاعل تركوها خلفهم التقطوها فأصبحت خلال لحظات ذات لهب ناطقة بالضوء والدفء ... يتقدمون.... فجأة في تلك اللحظة سقطت المشاعل على الكوخ الخشبي فشدت على ذراعي بأناملها الرقيقة وعيناها تتابعان الشرر وألسنة النار كأنها تلوذ بي من مشهد رائع تعودت أن تراه كل عام في الوقت تراكض بعض الصبية نحو مواقد تفوح منها روائح الخبز اللذيذ :

خذ بعض الخبز المفتول![1]

الكعك والخبز المفتول اللذيذ وعمال البلدية يوزعون بعض الحلوى على الأطفال.. العالم كله مشدود في تلك اللحظة الزاهية المهيبة المقدسة إلى نار مسعورة تطغى على العيون وتتكلم بدلا من الشفاه.. الضوء وحده ولاشيء سواه يهيم فوق الأرض.. دقائق أصبح العالم مستأنسا بالنار باحثا فيها عن لحظة الخلاص السعيدة.. دنيا من نور كل شيء تلاشى ماعدا صوتا عذبا رقيقا ينطلق من مكبرة صوت في اطراف المتنزة يترنم بأغنية لاحقتها شفاه المتسامرين:

---

(1) يلاحظ أن الكلمة الدنماركية solbrød مركبة من sol وتعني الشمس وbrød الخبز ويمكن ترجمتها إلى الخبز المفتول twisted bread.

«نحن نحب بلادنا

مع السيف باليد

نعرف أي عدو نواجه

ونقف للأرواح الشريرة

سوف تشتعل النيران

كل مدينة فيها ساحرة

إننا نروم السلام لجميع البلدان

منتصف الصيف

القديس هانس القديس هانس»[1]

النار التي تلتحق بالأفق الأعلى كرة شفافة. كان تموز جالسا وسطها على عرشه ومن حوله الجواري والغلمان

(1) مقطع من أغنية دنماركية طويلة تمجد الأرض الدنماركية وتدعو إلى السلام بدايتها:

Vi elsker vort land
Når den signede jul
Tænder stjerneni træet med glans
I hvertøje
Når om våren hver fugl
Over mark, under strand
Lad stemmen til hilsende
Triller sig bøje

النص العربي مقتبس من أحد مقاطعها.

والآلهات. الساحرات يتراقصن على مكانسهن أمام عينيه كنجمات شبقات وهو في غاية صحوه لاغيم ولامطر ولارعد. بدا سعيدا لكل من أبصره وراح ينظر إليّ نظرات مبهمة.. ربما لون شعري وسحنة وجهي التي يحملها قد تكونان الهجرة التي تجمعنا.. ولعلني أكون قد سرقت النار من أطول نهار منتصف الصيف وحملتها معي إلى هذه البلاد في يوم خريفي يبشر بالبرد وجعلت أنتظر إلى يوم آخر.. احتمالات كثيرة مع ذلك لم يشك بي.. فجأة احمرت عيناه غضبا وجرى الزبد من شدقيه. هكذا فجأة من دون مقدمات زعق في المدعوين وهو يحول نظراته عني:

إنكم تحرقون وتقتلون في أشهر غير شهري.. كل الأشهر حرم ماعدا شهري الوحيد!

بأسرع من لمح البصر مثل راعي بقر محترف يرمي من بعيد على ثور هائج حبلا قذف تموز بحبال نظراته على جميع الحضور عندها كانت النار تمدّ ألسنتها إلى أكثر من اتجاه. هذه هي اللحظة التي انتظرتها بفارغ الصبر. لاتهمني بعد بقية المراسم. الناس مازالوا يزحفزن نحو الحاجز، الأطفال يتناولون حلوى وخبزا من أيادٍ أشعلت قبل قليل النار أما أنا فعليّ أن أتخذ طريقي إلى المنزل. الدفء يناديني من بعيد، وأصوات الفضائيّات العربية تثير فضولي. صراخ.. ندوات.. مشاحنات.. عرب يعترضون.. أساتذة جامعات.. أبناء شوارع.

كلنا ننتظر بفارغ الصبر.

استهلال ثالث

شيخ في الثمانين من عمره يسير مع طفل له في البرية..
فجأة
اندفع جنود نحوه. قال كبيرهم:
دلنا على مرابع قومك وأخبرنا عن عددهم
قال الشيخ:
أخاف إن ارشدتكم على قومي أن يشي بي هذا الغلام
فيما بعد فيقتلوني
استل الزعيم سيفه وأطاح برأس الغلام وهو يقول:
لاتخف تستطيع ان تدلنا الآن
قال الشيخ وهو يلتقط آخر أنفاسه:
كنت أخشى أن تقتلني فيضعف الولد ويخبركم بمكان
أهلي أما الآن فإني أموت في غاية الطمأنينة

حكاية عربية شعبية قديمة

في عمق الجزيرة العربية كانت هناك نساء يستقبلن الرجال. . يحفظن وجوههم فلا يغيبون عن أذهانهن حتى إذا بان حمل إحداهن استدعتهم جميعا وطلبت من أحدهم أن يكون ابا لوليدها المرتقب'

من تاريخنا العربي قبل الإسلام

3

موعد مرتقب يأتي به الغد.

هناك حفنة من الساعات.. الدقائق، والثواني تفصلني عنه، فيبدو كأنّه متعلّق بالأبد، ويظلّ في ذاكرتي ناعما شفافا بغض النظر عمّا يحمله من عنف وقسوة وآلام:

- هل تعرفني من قبل؟

قبل أن أغادر سمعت صوته. التفت فرأيت" كـاي" الكاثوليكي يرتدي بدلة رمادية ذات سترة طويلة وعلى رأسه قبعة سوداء. الحق إني إلى الآن لم أذهب إلى المكتبة فارى صورته أو اقرأ عن سيرته كان ينظر إليّ نظرة ذات إشفاق غير أني لم أر في عينيه أيّة سخرية أو انتقام:

- هل رأيتني من قبل؟

- كلا.

- متى عرفتني؟

- قبل بضع ساعات.

- إذن لِمَ تحرقني؟

- أبدا.

- ماذا تفعل هنا؟

- أنظر!

- تنظر؟

- نعم أنظر فقط أنظر!

- أتدري أن من أبصر كمن فعل!

أواجهه بسوء نيته:

- لكن هل تعرف أن هؤلاء يحبونك؟

- أنا ؟

- نعم أنت!

- لم يريدوا لك الحبل وكان حرقك يستمر أياما ثم خصصوا لك يوما واحدا هو هذا اليوم الذي التقيتك فيه!

أسخر من "كـاي" الذي عرفته قبل ساعات معرفة سطحية بيد أنّه يحاول أن يستفزّني. يبتزني كمن يتهم عابر سبيل جائع بالسطو على روائح الشواء المنبثة في الهواء. كـاي أيّها المسكين أنت مثل المقاتل الحشاش لاتعي ماتقول. تريد أن تجعل الحواس متحدة بحاسة واحدة مثلما فعلت أنا فحققت وجودي خلال لحظة في أكثر من مكان. كنت مع الساحرات ثم قفزت معك وعندي موعد غدا هو الفجر بتوقيت بريطانيا وهو الضحى أو الظهر كما تظنه بغداد أنت تريد للنظر أن يكون لمسا وللمس أن يكون سمعا لأنّك تحكم على العالم وفق الطريقة التي قتلوك بها. لم تمارس عمليّة القتل بعد فأحرقوك

ولحد الآن مازالوا يحرقونك. أنت تهذي!:

- أنا؟

- نعم أنت؟

- كيف أستطيع أن أكون في مكانين بوقت واحد؟

الست عراقيا يحمل جنسية أخرى ويعيش في مكان آخر قدرة الإنسان في الابداع أو التدمير لاتنتهي والمتهم في القفص يتهم أي شاهد جاء من الخارج أنه يبدو بوجهين مادام يعيش في بلدين ويحمل أكثر من هوية تلك جريمة يحاسب عليها القانون:

ألم تشعر بالدفء من لهب النار!

- بلى

- ألم تتلذذ بالحرق؟

- بلى

- ألست هنا على بعد خطوات منّي؟

- لا أنكر.

كأيّ مجرم أتسلل عائدا إلى منزلي. لو كانت معي هذا العام لما زارني "كـاي". لوجدتني أضع رأسها على كتفي وأمسد شعرها الناعم الطويل.. كانت وحدها تبعد الساحرات عنّي، ولو لم أهاجر لما تعرفت على "كـاي" الذي يركض ورائي لأدانتي. هاهم الإنكليز يحيطون بي.. ينصرفون إلى الثرثرة أو القبلات، ويتحدثون عن وقت إشعال النار، والثائر

كـاي يستغلّ عزلتي ليوجّه إليّ الاتهام وحدي فأنسحب مشيحا بوجهي عنه.. أتسلل قبل أن يكتمل حرقه.. بعيدا في الدار حيث الدفء أدمن القهوة محاولا جهدي أن أقاوم الأرق. أكرع أكثر من فنجان، وأظلّ أصارع النوم. أقلّب المحطات الفضائيّة. الوجوه ذاتها... الصراع نفسه... مناصرون ومؤيدون...

- مجرم

- قاتل

- سفاح.. هذه نهاية كل جزار.. دماء حلبجة والدجيل.. اعدامات الرفاق..

- بريء. الأمريكان سفاحون.

- بطل.. الرئيس العربي الوحيد الذي أرسل صواريخ على تل ابيب.. نحن هنا في الأردن نحبه.

- إذن خذوه زعيما لكم!

- سلامة ملكنا!

- سلامة رئيسنا!

هو صلاح الدين!

أتوجه إلى القنوات الإنكليزية... غناء.. مسابقة رقص... من يربح المليون. فلم لشارلي شابلن... في مثل هذه الليلة بدأت القوات الألمانية تنسحب من بلجيكا. تكريم للقوات البريطانية التي أبلت بلاء حسنا وأبدت شجاعة لاحد

لها في تطهير شمال أوروبا.. سيادته مشغول بالحرب مع النار.. لعبة أطفال مع عين الشمس التي يتتناثر رذاذها في الهواء وسط الظلام فيبول الطفل في فراشه إن هو لعبها.. تلك اللعبة تستمر ثماني سنوات ولم يعلم سيادته أن العالم كله يمكن أن يتحول في لحظات.. لحظات فقط سواء في أطول يوم صيفي أم اقصر نهار وقت البرد.. دقائق وتصبح الدنيا كلها لهيبا مجوسي اللون يعانق السماء فيذوب وتذوب معه وهي تغني أغنية دافئة فكيف أقدر أن أغالب النعاس ثمّ أعود إلى المحطات المتناثرة من حولي؟في رأسي أكثر من صورة: الإنكليز قتلوا المتمرد "كاي" الذي اتهمني قبل ساعات بحرقه، وهاهم يقتلونه بطريقة ساخرة. كلّ عام يحرقونه والعالم يصفق لهم. يمكن أن نحوّل الموت ذاته إلى لعبة فتخف بشاعته أمام الآخرين. صديقتي الدنماركية ناقشتني ذات يوم بمبدأ الموت. قالت كيف يمكن أن نضع أنفسنا مكان الله فنسلب إنسانا روحه. أيدّت بحماس القانون الأوروبي الذي يمنع عقوبة الإعدام، قلت لها محتجا لو أن لديك طفلة قتلها مجرم ما.. جزار حرمك منها ماذا تفعلين مع ذلك صوتت لقانون يلغي عقوبة الإعدام لكنّها الآن بعيدة عنّي وبإمكاني أن أقول لها الدكتاتور نفسه وضع نفسه مكان الله فأعدم وقتل أنا بعيد عن الشارع العربي ومحامي الدكتاتور، وحماس الفضائيات.. يمكنني أن أمارس لعبتي في القتل بكل حرية. أحيانا أعود إلى الطفل المشاكس.. تذكرته حين قابلت ملكة الدنمارك وجها لوجه مصادفة في مربع القصر الملكي.. لم اكن أسمع بها في التلفاز سوى مرة واحدة كل عام. ليلة تؤذن سنة قديمة

بالانصراف وتهم بالإطلالة سنة أخرى عذراء عندئذ تظهر الملكة. تتحدث بضع دقائق وتنصرف. وتذكرتك حين رأيتك وجها لوجه. كنت على بعد خطوات مني.. قبل ساعات في مكان عملي الذي انقلبت فيه من عقاب إلى نسر جاء المسؤول وأخبرنا أن السيد النائب في طريقه هذا اليوم إلى مقر المحافظة. خرجنا ووقفت على الرصيف مقابل إعدادية العشار وماهي إلا لحظات حتى اطلت سيارات يقف على حافاتها جنب الأبواب حرس يوجهون مسدساتهم إلى السماء في واحدة من هذه السيارات السوداء كنت تلوّح لنا فوقع نظري على وجهك وبدلتك فانشغلت بالنظر إليك عن التصفيق والهتاف لم أكن يوما ما ذلك الولد المشاكس الذي يتبرص بملكة الدنمارك فيخرج لها من مكمن فيسأل جلالتها عن الساعة الآن أو الولد الذي رش البخاخ على الذباب فكان شأنه شأن اهل البيت جميعا رأوا سيادته في التلفاز فقط ثم فجأة جاء حرس مدججون بالسلاح واقتحموا البيت تأكدوا خلوه تماما من كل مايسبب الأذى وأخبروا صاحبه أن سيادته في طريقه لزيارة العائلة.. ارتميت تطوق عنقه وأخذك بين أحضانه. سألك:

- ماذا تحب أيها الولد أن تصبح في المستقبل؟

- رئيس جمهورية!

بارك الله فيك

في تلك اللحظة التقت عينا الزعيم بعيني الطفل الجالس في حضنه فقال:

- حسنا هل تعرفني؟

- نعم أعرفك

- من أنا؟

- أنت الذي يبصق عليك والدي كلما ظهرت في التلفزيون!

منذ ذلك الوقت اختفى أبي لكني لم أعد نفسي يتيما مادمت لم أتحقق من موته.. هل أصوت لقانون جديد يلغي عقوبة الإعدام أم ياترى أعد نفسي قاتل أبي.. القهوة والنعاس يدوران بجسدي مثل القط والفأر. سوف لا أقتله كي لايقال الجنوب قتله أو الأكراد شنقوه ربما اختلط عليّ الأمر فرأيته مرة يحمل القرآن وأخرى يرتدي زي المعدان وثالثة الزي الكردي. فمن أقتل وهو الذي دخل كلّ بيت وارتدى جميع الأزياء، أما لعبتي فستريح الجميع: أنا ياسيادة القاضي عندي لعبة تسمو على السياسة وتلغي المزايدات. كلّ سنة يصنع الناس دمية من الخشب... خرافة... إنسان من قش.. تبن ننفث عليه غضبا ورثناه من كل الأزمنة وكل الأمكنة.. كل قوم يخرجون حاملين دميتهم ولعناتهم... الإسكندنافيون دمى الساحرات. الإنكليز دمية "كاي" كلّ أمة تخرج أوزار الماضين. . الواقفة جنبي سيدة في الأربعين ظنّتني أتحدّث معها في حين زادت حدّة النقاش بيني و"كاي" حين خلته زعق فيّ، فانفلت من أمامه.. كان أهل أربيل والسليمانية والعمارة والبصرة وبغداد يحملون صناديق زجاجيّة فيها دمى متشابهة... كالبكتريا انشطرت دمية الدكتاتور إلى أكثر من واحدة شأنه عندما كان حيّا، فاختلطت تلك اللحظة القنوات

الأجنبيّة والعربية... مذيع ألـ BBC.. المحامون العرب. الأمريكان... اللغات اختلطت، ويمكن لأيّ ما أن يفهم لغةً ما من غير الحاجة إلى مترجم:

- متى يبدأ الحرق؟

- السابعة.

- متى يتمّ الحرق؟

- عندما تغيب الشمس منتصف الليل.

- إنّها الليالي البيضاء.

- لِمَ في هذا اليوم؟

- لاأدري.

كاي أحرق في الليلة ذاتها.

- متى يتم النطق بالحكم؟

سيادة القاضي نفسه لايتركني. المدعي العام ذو البشرة السمراء يوجه إلي نظرات ثاقبة.. لاشك أني لاأدرك نفسي جيداً. أستطيع أن أقوم بأفعال مثل هؤلاء.. أفوق "كاي" والزعماء الآخرين. أقلد سيادة الرئيس في كل سلوك.. لابد من أن ألفت نظر سيادة القاضي: سيدي أنا لااقل أهمية عن اي واحد من الذين في القفص صحيح أن والدي مازال حيا وأن امي لم تتزوج رجلا آخر..

- ماذا فعلت أيها الولد. اعترف قل الحقيقة كما هي!

- سيدي القاضي خلطت المسحوق بالماء ورششت النخيل

- هل كنت وحدك؟

- نعم

- ألم يساعدك أحد؟

- كلا

- انت متأكد؟

- نعم

- من أين حصلت على المسحوق

- دخلت المخزن

- سرقة

- إنه مخزن أبي

- الوقت ليس وقت تلقيح الحميرة

أمي تقول وأبي يمسك اذني ويهدد:

- إحذر لاتضع يدك في فمك يداك ملوثتان لقد أفسدت علينا النخيل ياغبي

وسألني القاضي:

- ثم ماذا؟

حملت مرش الحشرات ودخلت غرفة الضيافة رششت في

الهواء فمات الذباب ومازالت نتانة الـ DDT في أنفي إنها رائحة كريهة لاتطاق ليست مثل رائحة التفاح العفن التي شممتها في المسحوق الكيمياوي! تهم كثيرة تدينني لائحة يقرؤها المدعي العام: سكنت في بلدين وعشت في قرنين هاتان تهمتا تزوير اتخذتهما وسيلة لجرائم أخرى.. المكان والزمان تلاعبتَ بهما كي تقترفَ جرائم كثيرة امتدت عبر التاريخ وها انت تجلس في غرفتك الدافئة تتربص بالصباح لكي تراقب آخر الجرائم.. هل أصعد في هذا الوقت المتأخر من الليل إلى الطابق الثاني فأعرض على جارتيَّ السحاقيتين بعض سائلي المنوي. قد تكون وسيلة ذكية أقضي بها الوقت الممل فأنا لست على استعداد أن ارافقهما إلى دار الفحص يوم الإثنين ولست على استعداد أن أبحث في المستقبل عن ولدين لي غير شقيقين مثلما أتعبني البحث في السابق عن أب لي ... هؤلاء أجدادي السابقون الذين فتحوا العالم من الصين إلى الأندلس كانوا من أبناء ذوات الرايات والسحر ربما لهذا السبب كانوا عنيفين فَلِم أنفذ حكما بواحد من سلالتهم من دون الآخرين؟ أضحك.. في داخلي مئات الحيوانات تتجمّع من النمل إلى الديناصور المنقرض تطالب بالاحتفال أنساق معها هناك في السابعة، وهنا في منتصف الليل:

- غدا...

- متى...

- إعدام شنقا!

- رميا بالرصاص...

- لم أر مشنقة بل نارا وحطبا وورق مقوى.

- لعبة إنها لعبة.

فجأة تتوقف الحركة. مدينة الألعاب خلفي لاتنطق. لاتتحرك كمشلول مقعد... الضجة تموت. أتلفت خلفي فأجد الجميع خاشعين كأنّهم في صلاة. يعتريني خوف... رعب هائل... فأصرخ ... اصرخ أتحرر من كابوس هائل. الوقت فاتني. فناجين القهوة انهزمت أمام النوم أما الساعة فكانت تشير إلى الحادية عشرة صباحا...

ربّما لاأعقل ذلك.

بغداد خذلتني...

كأنّ النوم غلبني منذ عهد بعيد... قرون وقرون تفصلني عمّا يجري... تماما فقدت لحظة المفاجأة... عيناي... أذناي... حواسي مشاعري تزور الخبر بعد قليل غريبة عنه. لم أسمع القاضي ينطق بالحكم... ولم أر الدكتاتور يزعق مكبرا وهو يحاول أن يتطاول على القدر كمن يأكل أكلة باردة بعد جوع طويل حتى خلته ينظر إلى القاضي ذي الوجه الأسمر نظرته إلى زعيم صوب عليه الرصاص عام 1959 وإلى قفص الاتهام نظرته إلى نهر الفرات الذي عبره ذات يوم سباحة وقد تخيل رفاقه الحاضرين معه في قفص الاتهام وجوه الذين تآمروا عليه فاستلهم واحدا واحدا ونفذ حكمه فيهم من غير شفقة. كان يركز عينيه على المنصة ويصرخ والقاضي ماض في قراءة لائحة الحكم عليه بالموت شنقا حتى الموت!

هكذا إذن كنت نائما والطاغية يستقبل حكمه. . .

ويدي انتبهت إلى الموجّه فراحت نظراتي تعبث بالمحطات:

فضائية بغداد تذيع الخبر. . فضائية الفرات. . فضائية الفيحاء. . السومرية. . الحرة. .

فضائية سورية تستنكر. . البغدادية مبهمة الملامح

الجزائرية تعلن عن خروج مظاهرات. . عمان. . قطر. . البحرين. .

السودانية الرسمية بين مستنكر ومؤيد ومتفرج

المغربية تمر مرورا سريعا على الخبر

مظاهرات في العراق وإيران وبيروت. .

تونس تبكي والكويت تفرح. .

تنساب دمعة من عين مذيعة في قناة العربية

اليوم في العراق وغدا في بولاق. .

المحطات الإيرانية تذيع الخبر أكثر من مرة.

قناة البوابة الشرقية تعبر عن دهشتها. . المذيع يبدي تململه. . قناة ليبيا تصرخ محتجة لصدور حكم جائر ينص على إعدام أسير حرب. والعقيد يسميه يوم الأسير. . .

وهو في كل الفضائيات يقف أمام القاضي هاتفا صارخا منتفضا ومتوعدا كأنه مايزال على كرسيه ولم يبصر سقوط

الساحرة من على مكنستها منتصف الليل أما سيادته الذي أراه من بُعدٍ فأظن الساعات الثلاث التي أرهقتني لاتسعه.. عرفته يتميز عني وعن "كاي" وعن أي إنسان آخر بقدرته على التخفي. أليس هو بقادر على أن يصبح قطا أسود لايلفت نظر الباحثين عنه؟ربما ينثر بودرا في المحكمة فينام القاضي والحراس والجنود الأمريكان والذين في القفص معه فينسل خارجا وحده. ولعل مشاهدي التلفاز يُفاجَؤون به يقفز من الشاشة إلى الخارج.. الفارابي الساحر الذي لعب بآلة صنعها فنام المجلس وقد تركهم نياما وخرج.. في بالي كل الاحتمالات فأنا أعرفه الفارس الذي جاء من عمق التاريخ البعيد. وريث جلجامش حفيد نبوخذ نصر.. ابن علي.. في البدء كان له جناحان يطير بهما سائحا في الفضاء.. فمه ينفث النار.. عيناه تقدحان شررا.. غادر مكانه في الفضاء، وألقى نظرة على المجرات فارتعدت خوفا.. ثم تتابع نور وظلام، فهوى كما يهوي العقاب من ارتفاع شاهق على سطح ووقف بصورة الآدمي:

- أووه هذا خطأ يا استاذ. خطأ فظيع بتعبيرك؟

- ماذا تقصد؟

أولا العقاب يأكل الجيف ألم تر أسراب العقبان تلتم على الجثث تنتظر بنات آوى والضباع حتى تشبع ثم تأتي إليها، فليس من اللائق أن نصف السيد الرئيس بالعقاب وإن دل الوصف على القوة ثانيا العقاب أصلع و...

- ماذا تقترح؟

- أبدل العقاب بنسر

الحمد لله أني لم أكن خبيرا باللغة العربية ولاأميز بين حروف الجر وأخوات إن وإلا لكلفت بكتابة كلمة المؤسسة التي تستعد لاستقبال عيد ميلاده:

- حسنا النسر ليس بأصلع ولايأكل الجيف.

- هذه حقائق علمية.

- وليس هناك من منقصة فيه؟

لا أبدا فكثير من الدول جعلت النسر رمزا لاعلامها.

عقاب.. نسر.. نمر.. طير.. أي شكل يمكن أن يستوعبه فكيف يقف أمام القاضي وله القدرة على التخفي. كيف تقدر طائرات وبوارج وصواريخ وأقمار صناعية وحاملات طائرات أن تلتقط نسراً صار عقاباً وأنى تجد الاقمار الصناعية جرة في محيط هادر وهو في كل وقت يستطيع النجاة؟ مهما يكن فهو قادر على أن يعبر مرحلة الخطر بقدرته الفائقة.. يتهادى مثل ذكر البط والحرس يحيطون به.. هناك في الفضاء طائرات تزأر. المتظاهرون يرفعونه على الأعناق.. ابتسم في وجوههم واختفى. قالوا لانصدق أبدا مايجرى.. سيعود يوما ما.. إذا كان موسى العبري صعد إلى الجبل يستوحي وصايا الرب فليتزل إلى الاسفل من يقدر على النزول كي يطلع على ظلمة الأرض ويحدثنا عن سر الظلام فغدا يظهر في تكريت أو بغداد والبصرة.. الأرض تطوى له فيضع خطوة في الفرات وخطوة في دمشق وثالثة على جبل المقطم مثلما أراه الآن

يجلس في القفص مع حلقة الرفاق أمام القاضي والقرآن بين يديه فأظنه يغادر المكان بطريقة ما ولاغرابة في الأمر إذ يقطع تلفزيون بغداد بث المحاكمة ويعلن الخبر التالي:

هرب المتهم....

- هرب واختفى على طريقة الفارابي.

- رجل قرأ التاريخ فتقمصته أحداثه من الوريد إلى الوريد.

الله أعلم فلسيادته صفة التواري عن الأنظار قد نراه غدا في وزارة الزراعة يسدي المعلومات للمسؤولين عن كيفية زيادة الانتاج.. لدينا نهران طويلان عريضان.. ماء وفير.. فلماذا نستورد الحنطة والشعير والجبن والزيتون والعنب والرمان.. وبعد غد يطل علينا من وزارة النفط يأمر المعنيين بالأمر أن يزيدوا الانتاج إلى تسعة ملايين بئر في اليوم.. العراق يعوم على بحار من النفط.. أم تلك وزارة الصحة لايدري اطباؤها والكيمياويون كيف ينتجون لقاحا مضادا للإيدز والسرطان.. إنكم أيها الأمريكان تأسرون وهماً لقد أخطاتم الهدف. لاأحد يصدق.. جندي أمريكي يقف على حفرة فوق رأس رجل كث اللحية نصفه الاسفل تحت الأرض ونصفه لحية وعينان وثمة يد ما تعبث بلحيته ورقبته وأسنانه وعيناه تنظران ذاهلتين إلى الحرس فوق رأسه:

- افتح فمك!

- من يثبت أنه الرئيس؟

- رأسك إلى الأعلى!

- إسمك؟

- كاي.. فا.. ؟

- كاي هذه رسالة بيدك دليل يثبت جرمك.

- أنا رئيس جمهورية العراق!

- اقسم أنهم لو أطلقوه في الشارع لهرب منه الجميع ولولت الناس الأدبار !

- لا ليس هو إنه الشبيه!

- نعم هو الشبيه!

- هاهو العالم ينتظر تحليل الحامض النووي!

- أيّ حامض نووي أيّ بطيخ!

- لا هو البديل ولاشك فغدا نسمع أخبارا أخرى عنه!

ألـ BBC ألـ MBC RTL ألـ الكويتية.. روسيا اليوم.. المستقبل.. X factor.. الرقص على الجليد.. نورمان وزدم يصعد إلى الفضاء والزعيم يلعب مع أعدائه لعبة الغميضة[1] فيظن أنهم لن يعثروا عليه قط وينسى انهم يلعبون معه لعبة النار

(1) الغميضة لعبة يلعبها الأطفال والصبيان نسميها في البصرة " غميضه جيجو" وهي أن يغمض الجميع أعينهم ماعدا واحدا يقوم بالاختباء في مكان ما وعندما ينتهي الوقت المحدد الممنوح له في التخفي يفتحون عيونهم ويقومون بالبحث عنه.

التي تأكل الأخضر ولاتترك اليابس. هم يقفون مغمضي العيون كما فعلوا أيام حرب الثماني سنوات وحوادث حلبجة والكرمة والأهوار.. لايسمعون ولايبصرون ويتركونه يختفي.. المحطات تتراقص أمام عينيّ ولعبة التخفي تتلون بقدرة قادر.. تتحول من نار إلى حبل.. من يبدأ بالحبل مثل" كاي "ينتهي بالنار.. لكنه لم يكن ليعنَى بالبللورة الشفافة فيقرأ الحاضر والماضي.. عيناه الثاقبتان وحدهما تطالعان من خانَ ومن يخون وماكان ومايكون فيقف أمام رفاق الأمس مسلطا نظراته الثاقبة على الوجوه ويتلو أسماء يخرج حاملوها مطرودين من حضرته:

- من يسمع اسمه يخرج من القاعة ومن ينطق بحرف أقدّه نصفين

- حكمت المحكمة على المتهم... بالإعدام شنقا حتى الموت!

كيف غفوت وفاتني الخبر في حينه ولم يبق أمامي سوى محطات فضائية تصقل وتعيد وتمضغ الحدث كحيوانات مجترة.. ثبت وجهك باتجاه الشاشة. لاتلتفت إلى الوراء. لاتختلس النظر إلى أي مكان فأنت أمام حدث عظيم لايجوز الغفلة معه. لاأشك مثلما من قبلُ أن الساعات الثلاث بين لندن وبغداد امتدت قرونا طويلة من الأحداث التي سرقت من عيني اليقظة. سخرت من نفسي ومن الساحرات اللاتي يستقبلن حكم الموت كلّ عام في أطول يوم تشهده إسكندنافيا. أغلقت جهاز التلفاز معرضا عن قهوة الصباح والتلذذ بمتابعة الأخبار.

ارتديت ملابسي على عجل، وقدت السيارة إلى ساحة الإعدام. لم أعثر على مدينة الالعاب التي كانت تعج بالحياة البارحة. الساحة خالية من أيّ أحد. لقد رحلوا منذ الصباح الباكر... لملموا آلاتهم ولم يتركوا أي أثر كما يفعل البدو أهلي القدامى. مكان حرق "كـاي" وحده مضمخ بالسخام، وجدت آثار رماد والعشرات من أغلفة المفرقعات والألعاب النارية الفارغة، وعلب المشروبات الخاوية وعلى بعد خطوات من قدميَ غلاف لعبة نارية ينتصب من دون أن يطلقه أحد كأنّ صاحبه نسيه عن عمد أو كأنّه كان ينتظرني منذ زمن. "كـاي "نفسه يدينني لأنّي حضرت مراسم حرقه. لايصدق لو قلت له إنني جئت هنا هربا من طول يوم وليلة بانتظار حكم يصدر في اليوم التالي لكنكَ كنت في القفص مع رفاقك وأنا وحدي في غرفتي أتطلع إليك. أحرقت مع الآخرين "كاي" وبدأت اتابعكَ بالحبل.. حينما كنتُ حرا هربت من البلد ولم أجرؤ على العودة بل لم افكر فيها.. ظننت وقتها نفسي غرابا سرق النار من آلهة استأثرت بها وتنعمت وحدها بالدفء، فأعطاها بشرا أنكروا فضله حين سموه الغراب الغبي الذي وهب النار لفصيلة غير فصيلته واقترف جريمة السرقة من أجل مخلوقات لاتفهمه فلا أقسى من أن يُحكَم عليه إلا بالنفي.. لكني الآن وأنت في القفص أنعم بالحرية بعيدا عنك إلى درجة أني أخشى أن أفرط بتلك الحرية إذ أعود ثانية إلى بلدي وأتذكر قول التي وضعت يدها بيدي عِقدا من الزمن وهي تحذرني من العودة الآن وماعلي إلا الانتظار إلى أن يستقر الوضع ويحل الأمان.. حتى هذه الفكرة ألغيتها تماما.. وهاهو الحكم

يصدر عن غير علم منّي. ليلة أمس حاصرني حرق الساحرات واتهامات "كـاي "لي وجثث الموتى في الهند أو جثة أحرقها هندي خلسة داخل أسوار مزرعته النائية جنوب لندن فشاع خبره في وسائل الإعلام فما أفظعها من ساعات أما حرق وإما قتل ويا لها من ليلة عصية على الحياة عقيمة بالنفوس فيها تستطيع أن تقتل وتحرق من دون أن تعي كما فعل ذلك المقاتل معي في إحدى المدن المسبية. ربّما كان من الغباء أن أحضر إلى هذا المكان بدافع الفضول وقضاء الوقت كاشفا عن نفسي بعد أن قذفك "كاي" هكذا فجأة أمامي. كل هؤلاء الواقفين يجهلونني. أتعمّد أن انظر إليهم فأرى عاشقين يغيبان في قبلة وعائلة منهمكة مع صغارها أو عامل بلدية يوزع الحلوى على الصغار. "كـاي" وحده ميزني متخطيا غفلة الآخرين، فدفعني في القفص مع الدكتاتور ربما أنا ارتبكت فألقيت بنفسي في القفص وجدتني أواجه تهمة خطيرة بصفتي أحد المجرمين الخطربن. لـِمَ حشرت نفسي في هذا الموقف كأنّي المتهم الوحيد على الأرض باقتراف جميع الجرائم منذ بدء الخليقة؟ لم أغادر أوروبا قط.. لقد سجنتني فيها أوثقتني بحريتها أو سُجِنت فيها متعمدا حتى خشيت أن تضيع مني فلم أغادر اسكندنافيا إلا بعد عقد من الزمن إلى بلد يعج بالشرق. بريطانيا وجهها اسمر.. أبيض.. أشقر.. أسود.. أصفر.. أستطيع أن أختار أي وجه أتقمصه لأتحرر من جرائم كثيرة.. مهزلة سوداء.. من أجل هذا فقط لاأشعر بالضباب هنا.. أمامي حل واحد هو أن اعود إلى طفولتي لأستنسخ منها نهاية جديدة.. هي الطريقة ذاتها ألجأ إليها كلما شُحِنتُ بالغضب

من المعلمين : إذا كان الموت لايرضي جميع الأطراف فيمكنني أن أستل عصا غليظة من أية شجرة عملاقة وأقف أمام صف من أشجار الصفصاف فأرى في اية واحدة من تلك الأشجار معلما أكرهه من معلمي مدرستنا.. أناديه باسمه وأنادي الآخر ثم أهوي على كل واحد منهم بعصاي الغليظة مثلما يفعلون هم معنا نحن الصغار وهناك واحد أراه لاينطق اسمه فتذكرت أنّي نسيت اسمي في إحدى الهويّات بمقبرة جماعيّة في مكان ما وربّما من قبل في أحد البيوت التي أحرقتها ذات يوم في مدينة مستباحة نسيت اسمها في مجمل مانسيت من هول الكارثة التي غطت على جميع الأحداث في الماضي. لم يكتشفني أحد سوى " كـاي " المسكين الذي أخرجني من بين الجثث من مقبرة مجهولة مهملة في مكان ما.. طفلا يعرف أمه المرأة التي رفعت راية فجاءها رهط وبعد تسعة أشهر استدعتهم فلم يأت أحد منهم.. كنت طوال هذه الفترة أتجول في أكثر من مكان وأنتقل من زمان إلى آخر وكان "كاي "نفسه مختبئا في حفرة وحالما أطل نصفه منها عثرت به لكن مازلت أبحث عن أبي ومدينتي إلى هذه اللحظة.

قد أجد أصدقائي مصادفة في مقبرة مهملة وأنسى أن جسدي داخل سيارة محترقة.

أين اذهب ؟

من يعرفني هناك؟

لكنّي بعد رحلة طويلة حضرت احتفالات كثيرة ونسيت أن أقيم حفلتي الموعودة، ثمّة في ذلك المكان حيث تغيب

الذاكرة أرصفة قلّبتُ وجوهها، وشوارع استهلكت خطواتي.. وجوه لاأعرفها وأخرى عرفتني، وهناك آلاف الكائنات الدقيقة والضخمة توجّه خطواتي. تجبرني أن أفعل شيئا ما لا يخصّني وحدي، وفي داخلي تضطرب أغنية من دون لحن: عيناي الخاويتان تبصران عالما خالي الملامح والصور، كنت أشارك العالم احتفالاته في الحزن والفرح من دون أن أميز بين الإثنين، ولم يشاركني أيّ أحد في عزلتي الوادعة.. قد تكون عزلتي الأخيرة، فحين حلّت اللحظة المناسبة لأثبت براءتي وأنتقم تركني العالم وحدي، في تلك اللحظة من دون تردد كنت أمارس لعبة النار. عيناي الخاويتان وقعتا على قلم بارود منسي في الحقل المضمخ بالسخام وبقية العلب الفارغة. ويبدو أني وجدت في آثار " كاي " مضيعة للوقت. تسلية جديدة أسميها لعبة النار التي أعبر منها إلى تسلية أخرى تدعى الحبل فكانت تلك فرصتي الذهبية التي أصطلم بها الوقت بعد فوات الأوان.. انحنيت التقطته.. كما لو أنّه يرقد في داخلي فتهدأ على وقعه حيوانات تجوس في دمي. أشعلت النار. تآكل قليلا ثمّ دوى مفرقعا وانطلق إلى الأعلى. راحت عيناي تتابعانه وهو يتلاشى خلال ضوء النهار من دون أن يرسم أيّة ملامح تبهرني حتّى اختفى في الأفق البعيد وذوى عائدا إلى الأرض من دون أن يحدث أي ضجيج. كنت تلك اللحظة المنداة ببقايا السخام أحتفل مع قلم البارود المنسي وحدي في الوقت نفسه تنسمت رئتاي أغنية قديمة راحت أمي تغنيها لي وهي تهزّ مهدي حتى أنام، فأدركت لِمَ لم أبق صاحيا حتى ساعة النطق بالحكم:

دللْ لول يا الولد يابني

دلِلْ لولْ

عدوَك عليل وساكن الجول[1]

في تلك اللحظة اختلطت باغنية الطفولة القديمة التي غنتها لي أمي كلماتُ الخامس من نوفمبر ونشيدُ أيام المرافع.. الكلمات الإنكليزية تلاقحت مع العربية والدنماركية عدوّك عليل fastelavn.. remember remember الجول.. انساب اللحن العربي الحزين بهزات المهد واختلط بغيره.. بقيت أدندن مع نفسي أكثر من لحن في وقت واحد لكن لم يكن هناك من أحد ليلتفت إلي!

(1) أغنية شعبية اعتادت الأم في البصرة أن تغنيها لطفلها وهي تهز مهده كي ينام وكلمة " الجول"بتفخيم الجيم،جيم تحتها ثلاث نقط، هي الصحراء

إشارة

"التاريخ رواية تخلو من الفن والرواية تاريخ ينتظم بالفن"

أولاً: كتبت هذه الرواية في في الفترة من 5 نوفمبر إلى 30 ديسمبر 2006 في مدينة نوتنغهام - المملكة المتحدة وسيجد القاريء الكريم أني استلهمت وقائع تاريخية لكني لم أتقيد بها حرفيا لأن الروائي ليس بمؤرخ ولا يُعنىَ بالتاريخ إلا بقدر ما يتناغم مع العمل الأدبي من حيث البعد الجمالي والفلسفي. الوقائع تلك هي وجود احتفال كبير اعتاد الإنكليز على إقامته في ليلة الخامس من نوفمبر هذه الليلة ينجلي صباحها عن حدث عظيم في العراق تابعته كل وسائل الإعلام. هناك اختلاف وتشابه بين الحدثين ومن خلال هذين الحدثين وحدث آخر في الدنمارك يحمل المغزى ذاته تتحرك روايتي هذه.

ثانياً: وأنا هنا إذ أطبع هذا الكتاب لا بد من أن أتقدم بشكري إلى الأساتذة الأفاضل الذين اهتموا بأعمالي الشعرية والروائية فأخص بالذكر:

* من مصر الأستاذ الدكتور يوسف نوفل الذي كتب عن المهجر المعاصر وعدني على رأس أعلامه.

* من سورية الدكتورة الفاضلة هدى صحناوي التي كتبت عن شعري ورواياتي.

* من الأردن الأستاذ العزيز الدكتور العلّامة هادي نهر الذي خص كثيراً من أعمالي باهتمامه.

* والدكتور الناقد الشاعر عبد الرحيم مراشدة الذي قدم بحثاً عن رواية «آدم الجديد»، وأبدى اهتمامه لنشر أعمالي في مجلة كلية الآداب التي كان يشرف عليها.

* ومن العراق من جامعة البصرة حيث كانت هناك رسالتا ماجستير واحدة تُعنى بشعري والأخرى برواياتي أخص بتقديري كلاً من:

- الدكتور سالم يعقوب رئيس قسم اللغة العربية.
- الدكتور الشاعر الناقد صدام فهد الأسدي.
- الدكتور سوادي فرج عميد كلية التربية.
- الدكتور حسين عودة.
- الدكتور فاخر الياسري
- الدكتور سامي علي جبار
- الدكتور حسين الهلالي

* ومن بريطانية الناقد القدير العلّامة الدكتور عبد الرضا علي الذي يولي أعمالي اهتماماً وتقديراً كبيرين.

فإلى كل هؤلاء شكري وتقديري ومحبتي...